99/٤٠/ح/9

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٥٦١
التاريخ

السنة التاسعة
العدد الأول

جمادى الآخرة ١٣٧٦ هـ
يناير ١٩٥٧ م

مِنْ زَلّاتِ ٱلْمُسْتَشْرِقِينَ

لحضرة السيد الأستاذ عبد الوهاب حمودة

يراد بكلمة المستشرقين كل من تجرد من أهل الغرب إلى دراسة بعض اللغات الشرقية كالفارسية والتركية والهندية والعربية وتقصى آدابها طلباً لمعرفة شأن أمة أو أمم شرقية من حيث أخلاقها وعاداتها وتاريخها وديانتها أو علومها وآدابها إلى غير ذلك من أسباب رقى الأمم وحياتها العقلية .

وأول عهد الغربيين بالاستشراق يرجع إلى القرن العاشر الميلادى . ذلك أن القوم لما شهدوا ما بلغه المسلمون من حظ عظيم فى العلوم الطبيعية والطبية والرياضية والفلكية وغيرها من علوم الحياة ، وبهرهم ما رأوا من آثارها فى ازدهار حضارتهم ، انبعثوا فى طلبها وتقليب النظر فيها والانتفاع بقضاياها ، يترجمون ما يقع لهم من الكتب العربية(١) فى حياتهم العملية ، فأقبلوا على دراسة العربية ليتهيأ لهم ما طلبوا ، ثم جعلوا يترجمون ما يقع لهم من الكتب العربية فى تلك العلوم إلى اللاتينية التى كانت لغة العلوم والآداب فى ذلك الزمان .

ولقد ظلت هذه الحركة مشبوبة طوال القرون الوسطى ، تتنافس فيها الأمم وتتبارى الدول . وشاعت فى القرون الوسطى لغتان فقط من لغات الشرق بين العلماء ، وهما : اللغة العبرية التى كانت تعتبر لغة الإنسان الأول ، واللغة العربية التى كانت مهمة لكثرة البشر الذين يتكلمون بها ، ولشهرة فلاسفة الإسلام ،

---

(١) تلك اللغة كانت لغة العلوم للمسلمين فى تلك الأزمنة .

أمثال : ابن رشد ، وابن سينا . ولذلك أنشىء فى باريس منذ أواسط القرن الثالث عشر للميلاد درس عام لتدريس اللغة العربية .

على أن إقبال الغربيين على درس اللغات الشرقية وتفهمها لم يكن الغرض منه مقصوراً على الانتفاع بما خرج فيها من العلوم فحسب ، بل لقد طلبوا ذلك أيضاً للأغراض التجارية ، وطلبوه بحظ أعظم من هذا لتيسير التبشير بالمسيحية فى البلاد الشرقية . فقد قضى مجمع فينا سنة (١٣١١م) وكان برياسة أكلمنت الخامس أن تؤسس فى باريس واكسفورد وبولون دروس عربية وعبرانية وكلدانية لتخريج وعاظ وأهل جدل أشداء لتنصير المسلمين واليهود . وأنشأ الفرنشيسكان والدومينيكان من الرهبنات الكبرى أديارهم دروساً فى هذه اللغات ، فأصبحت إيطاليا مهد حركة نجحت فى الاستشراق ، وأخذوا بنوع خاص يدرسون العبرية للتعمق فى فهم أسرار التوراة وتنصير اليهود ، ويدرسون اللغة العربية لتنصير المسلمين . فكانت رومية أول مدينة فى العالم طبع فيها كتاب عربى عقيب اختراع الطباعة ، وهو : « قانون ابن سينا » .

وفى أواسط القرن الثامن عشر لما أخذت أوربا تتحفز لاستعمار الشرق أخذ علماؤها يبحثون فى تأليف جمعيات لهذه الغاية فأنشئت منذ ذلك العهد فى أوربا وأمريكا عدة جمعيات للمستشرقين وأقدمها عهداً الجمعية الآسيوية فى باريس التى اسست سنة (١٨٢٢ م) بمعرفة شيخ المستشرقين من الفرنسيين سلفستر دى ساس ثم أنشئت معاهد للغات الشرقية فى جميع الدول تابعة هذه المعاهد لوزارة المستعمرات أو لوزارة الخارجية المشرفة على الشئون السياسية فلا عجب إذن إذا رأينا المستشرقين يجهدون فى تصوير الشرق بصورة بشعة قبيحة فى أخلاقه وعاداته وآرائه ويتجنون على الإسلام فى كتاباتهم ونشر ما يدعو إلى التشكك فى الدين الإسلامى وإلى تزعزع اليقين فى صحة كتابه الكريم وصدق الرسول الأمين . فهم لا يعفون عن الاتهام فيما يكتونه ولا يترفعون عن الهوى فيما يبحثونه اللهم إلا نفر قليل منهم رزق الإنصاف أو أرغمه التاريخ على الاعتراف

بفضل القرآن على الإنسانية وآثار تعاليمه فى إنقاذ البشرية .

فكان هؤلاء المستشرقون ضروباً ثلاثة ، فضرب لم يملك ناصية اللغة فأخطأ فى نشر الكتب وفى فهم النصوص لكنه حفل بأمور شكلية لا فائدة لنا فيها .

وضرب ثان أثرت فى دراساتهم مآرب السياسة والتعصب للدين ، فوجهوا الحقائق وفسروها بما يوافق أغراضهم أو ما يسعون إليه . ولعل هذا الضرب هو الذى دفع الشرقيين من المسلمين العرب أن يرتابوا بالمستشرقين جميعاً لأن من المؤسف أن يسخر هؤلاء العلم الذى يسمو به الإنسان لإذلال الإنسان أو استعباده أو الاعتداء على تراثه أو الطعن على عقيدته بغير الحق .

بقى فريق ثالث أوتى الكثير من سعة العلم ، والتمكن من العربية والإخلاص للبحث والتحرر والإنصاف فكانت دراساتهم مثمرة وأعمالهم نافعة وبحوثهم جديرة بالتجلة والاحترام .

فمن الإنصاف فى الرأى والأمانة فى الحديث أن نعترف لهم بالأثر البعيد فى بعث اللغة العربية وآدابها بطبع نفائس الكتب فى مطابعهم والتعليق عليها . وإلحاق الفهارس الميسرة للاستفادة منها .

فضلا عما عالجوه من البحوث المختلفة عن بلاد الشرق وتواريخها وأخلاق أممه وعاداتهم وشرائعهم ولغاتهم وعلومهم وفنونهم مما كان الغرب منه فى جهالة تامة .

فإذا كان المستشرقون قد أغاروا على الشرق فنقلوا إلى لغاتهم علومه وفنونه فما أجدرنا نحن بأن نستغرب كما استشرقوا فننقل إلى لغاتهم محاسن ديننا وجمال تعاليمنا ونبين لهم أسس مدنيتنا وسمو مثلنا حتى يتذكروا أن الشرق مهد الحضارات وأن تعاليم الإسلام منبع المدنيات وأن القرآن دستور الإنسانية كفل لها أهناً السعادات .

بيد أن للمستشرقين زلات ارتكبوا أكثرها عن عمد استجابته لنياتهم وتحقيقاً لأغراضهم ووقعوا فى القليل منها عن خطأ فى فهم النصوص وعجز عن الغوص إلى أعماقها والاهتداء إلى فهم أسرارها .

فنحن إذا فتحنا هذا الباب واهتممنا بالكشف عن زلاتهم والكتابة فى تصحيح أخطائهم فما ذلك إلا لأن الشرق اليوم متصل أشد اتصال بالغرب والغرب يهاجم الشرق فى ميادين مختلفة أهمها فى نظر الغرب المستعمر التشكيك فى العقائد والزلزلة فى اليقين وهم يستعينون فى ذلك بشتى الطرق منها نشر المستشرقين لمؤلفات كلها سموم وطعون فى أسلوب جذاب ، وثوب شفاف من التفكير الحر الخداع ، ولنا شباب يقرأ تلك الطعون فى مؤلفاتهم بلغاتهم تارة وبما يُترجم له أخرى إلى اللغة العربية وينشر بين ظهرانينا ، فإذا لم نقم بتفنيد آرائهم وتزييف اعتراضاتهم والكشف عن خبيثهم عششت تلك الشبه فى أفكار شبابنا فنشئوا ملحدين زنادقة يروجون لتلك الشبه وينشرون لتلك الأباطيل وينظرون إلى الدين نظرتهم إلى ثوب بالرث ويطيرون مع الأفكار الإلحادية والآراء الإباحية .

فالباطل لا يقهر ولا يذوب إلا إذا اصطدم بقوة الحق وصولة أهله . وقوة الحق إما أن تكون مادية ، وإما أن تكون فكرية ، فالغلبة فى آخر الأمر للحق لا محالة « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

ولنبدأ الآن فى التكلم عن تلك الزلات .

يقول شيخ المستشرقين الأستاذ (نولدكه) وهو من كبارهم وعمدتهم وأهم مؤلفاته فى الألمانية . منها (تاريخ القرآن) نال عليه الجائزة فى الأكاديمية الفرنساوية .

أنحى هذا المستشرق بالنقد المر ، والاعتراض القاسى على أسلوب القصص فى القرآن . فقال (نولدكه) فى دائرة المعارف البريطانيه تحت مادة (قرآن) « وعلى الجملة فبينما نجد سوراً كثيرة من القرآن تعتبر من غير شك ذات قوة بيانية جديرة بالتقدير والاعتبار حتى بالنسبة للقارىء غير المسلم إذا بالكتاب من ناحية الجمال الفنى فى المقام الأول .

« ولكن لكى نبدأ بما نقدر على نقده دعونا ننظر فى بعض القصص الطويلة فهناك نشاهد العنف والجفاف يحلان محل الرصانة الملائمة بسير الأبطال وإن الربط الضرورى سواء أكان فى التعبير أم فى تسلسل الحوادث مفقود فى أكثر الأحيان

حتى يمكن أن يقال إن فهم تلك القصص أسهل علينا نحن من فهمها لأولئك الذين سمعوها لأول مرة . وذلك لأننا نستطيع أن نطلع عليها فى مصادر أخرى لا تتيسر لاولئك المعاصرين لمحمد . » ونجد على طول الخط جزءا كبيرا من اللغو والحشو الزائد ولا نجدفى أى جزء تقدما ثابتا فى القصص » .

وقد ذكر هذا النقد نفسه مختصرا « نيكلسون » فى كتابه «تاريخ العرب الأدبى» .

وللرد على ذلك نقول :

إنه لا يجوز مقابلة أسلوب القصص فى القرآن بأسلوبه فى التوراة وذلك لاختلاف الأغراض فيهما . ففى التوراة حوادث تاريخية منظمة تجرى فيها الأخبار مجراها الواضح العادى . أما القرآن فإنه يقصد من عرض هذه القصص التوسل إلى التهذيب والعبرة فلم يكن المقصد الأسنى منها مجرد سرد حكاية وقصة بل البلوغ بالقارىء والسامع معا إلى مغزى أدبى أو عظة سامية كان يعلم الناس أن الله فى جميع الأزمان الغابرة كان دائما أبدا يكافىء الأخيار ويعاقب الأشرار .

فسنة القرآن الكريم فى ذكر القصص والوقائع مخالفة للمعهود من ذلك فى أساليب التاريخ : من سردها مرتبة كما وقعت مفصلة كما حدثت وإن سبب هذه المخالفة فى الترتيب مرتبط بالغاية التى يقصدها القرآن من ذكر تلك القصص وسرد تلك الأخبار فهو لا يسردها لأجل أن تكون تاريخا محفوظا على صورة كتب التاريخ التى تسجل فيها الوقائع على حسب زمن وقوعها وإنما هو يذكرها لأغراض له يعمد إليها وأهداف يقصد بلوغها : من موعظة وعبرة وأحكام عملية ومن تبيان لسنن عامة فى سير المجتمع ونواميس مطردة فى حياة الأمم وإصلاح الجماعات .

ذكر الأستاذ الإمام رحمه الله فى تفسيره لسورة البقرة :

« القرآن حملات روحية خطابية لا يقصد بها تسلسل الخبر ولكن تستخدم فيها القصة للتذكير أو التهويل . فالقرآن ليس سفر تاريخ ولم تذكر أخبار الأولين فيه ليتلقاها المخاطبون كما يتلقون مسائل التاريخ فلا يضيره ألا تكون قصصهُ مسرودة فيه ومرتبة على نحو ترتيبها فى كتب التاريخ وإنما هو يذكرها كلما سنحت لها مناسبة مقدمة أجزاؤها أو مؤخرة موجزة أو مسهبة .

« وإن الباحثين فى التاريخ لهذا العهد قد رجعوا إلى هذا الأسلوب الذى سلكه القرآن من حيث التقديم والتأخير وقالوا ستأتى أيام يستحيل فيها ترتيب الحوادث والقصص بحسب تواريخها لطول الزمن وكثرة النقل مع حاجة الناس إلى معرفة سير الماضين وما كان لها من النتائج والآثار فى الحاضرين ». « وقالوا إن الطريق إلى ذلك هو أن ننظر فى كل حادثة من حوادث الكون كالثورات والحروب وغيرها ونبين أسبابها ونتائجها من غير تفصيل ولا تحديد لجزئيات الوقائع بالتاريخ ».

« فهذا ضرب من ضروب الإصلاح العلمى جاء به القرآن وأيده سير الاجتماع فى الإنسان ».

ونحن إذا درسنا أدب القصة فى اللغات الأجنبية وضح لنا أن بلغاء كتاب الافرنج فى عصورهم الأخيرة إذا ما أفرغوا مبادىء الأدب والأخلاق وأطوار الاجتماع فى قالب قصة قدّموا وأخروا فى أجزاء موضوعها بحيث تقرأ فاتحة القصة فلا تفهم شيئاً ثم كلما تسلسل الحديث بك ازددت فهما لها وتعقلا لموضوعها وأغراض مؤلفها . وكلهم يقول : إن هذا الأسلوب فى وضع القصة هو أبلغ فى التأثير وأشد فى الإيقاظ وتحريك النفوس .

أما سر تكرار قصص الأنبياء فى القرآن فقد ذكره ابن قتيبة فى كتابه « مشكل القرآن » قال :

« أما تكرار الأنباء والقصص فان الله عز وجل أنزل القرآن نجوماً فى ثلاث وعشرين سنة بفرض بعد فرض تيسيراً على العباد وتدريجاً لهم إلى كمال دينه ووعظ بعد وعظ تنبيها لهم من سِنة الغفلة وشحذا لقلوبهم بتجدد الموعظة ».

وكانت وفود العرب ترد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للإسلام فيقرئهم المسلمون شيئاً من القرآن فيكون ذلك كافياً لهم وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة فلو لم تكن الأنباء والقصص مُثنيات ومكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم ، وقصة عيسى إلى قوم ، وقصة نوح إلى قوم . فأراد الله بلطفه ورحمته أن يُشهر هذه القصص فى أطراف الأرض ويلقيها فى كل سمع ويثنيها فى كل قلب وأن يزيد الحاضرين فى الافهام والتحذير .